

المحاضرة الثالثة: الأسلوبية البنيوية

تُعد الأسلوبية البنيوية من بين اتجاهات الأسلوبية التي تُعنى بالنص الأدبي وجهازه اللغوي في علاقته بالقارئ، ولعل من أبرز من أسهم في تأصيلها الناقد الأمريكي "ميشال ريفاتير" (1924 - 2004م)، الذي نشر العديد من الدراسات التي أسهمت في ترسيخ هذا الاتجاه في الدرس الأسلوبي، من بينها مقالاته في الأسلوبية البنيوية، وإنتاج النص، معايير تحليل الأسلوب.

إن موضوع الدراسة الأسلوبية عند "ريفاتير" هو النص الأدبي؛ إذ يهتم بالنص الأدبي في علاقته بالقارئ، بمعزل عن اعتبارات سياقية أخرى. فالكاتب ومرجع النص أمور هامشية لا تحظى بالعناية في أسلوبية "ريفاتير"، والرسالة لا تعد أدبية إلا إذا كانت فنية إبداعية تُحدث انفعالاً ما في مستقبلها.

1- مفهوم الأسلوب عند ريفاتير:

سعى "ميشال ريفاتير" في مقالاته إلى تحديد مفهوم الأسلوب الأدبي، وقد طور هذا التحديد عبر فترات متتالية، وكان همه العمل على توسيع مفهوم الأسلوب ليشمل ما هو مكتوب وما هو شفهي، حيث يقول: "أعني بالأسلوب كل شكل ثابت فردي ذي مقصدية أدبية". ويقصد بالشكل الثابت: ثبات الخصائص الشكلية التي تُميز كل عمل أدبي. كما وضح مفهوم المقصدية بأنه لا يتعلق بما أراد الكاتب قوله، وإنما يتعلق بمقصدية النص الأدبية.

وقد أورد "ريفاتير" تعريفاً آخر طعمَ به التحديد السابق من خلال توظيف مفهوم القارئ، فرأى أن الأسلوب هو: " ذلك الإبراز الذي يفرض على انتباه القارئ بعض عناصر السلسلة التعبيرية". وهنا يدخل القارئ بوصفه عنصراً أساسياً في تحديد الأسلوب، وهو ما يوضح علاقة الأسلوبية البنيوية بجمالية التلقي؛ وذلك بسبب اهتمامها بالقارئ، وجعله شرطاً ضرورياً لتحديد الإجراءات الأسلوبية في الرسالة الأدبية.

2- مفهوم الأسلوبية عند ريفاتير:

تتميز أسلوبية "ريفاتير" بالنزوع الصارم إلى وضع علم موضوعي لدراسة الأسلوب وتحليله، باعتبار أن ذلك سيكون بديلاً عن الأسلوبية الانطباعية (وخاصة مع "لوي سبتزر") التي كانت تترك المجال للذات وأحكام القيمة، ولا تهتدي إلى المنبهات إلا عن طريق الحدس؛ ولذلك فهي تُخطئ كثيراً.

إن هدف تحليل الأسلوبية عند "ريفاتير" هو الكشف عن الإبهام الذي يخلفه النص في ذهن القارئ؛ وبالتالي تصبح الأسلوبية علماً لسانياً لتأثيرات الرسالة ومردودية فعل التواصل، ولوظيفة الإكراه التي تمارسها على انتباهنا.

من هنا تكون الأسلوبية علم يهدف إلى الكشف عن العناصر المميزة التي بواسطتها يستطيع المؤلف مراقبة حركية الإدراك لدى القارئ، والتي بها يستطيع أيضاً فرض وجهة نظره على الفهم والإدراك.

3- مراحل التحليل الأسلوبي عند ريفاتير

يعتمد التحليل الأسلوبي عند "ريفاتير" على مرحلتين:

أ- مرحلة القارئ الجمعي / النموذجي:

إن البحث الأسلوبي عند "ريفاتير" بحاجة إلى مخبرين مبلغين أو ذاك، ويأخذ المحلل الأسلوبي في تسجيل الملاحظات عن ردود فعله، فيصفه المحلل مثلاً بأنه (جميل، أو بشع، جيد الكتابة أو رديئها...)، ويستخدم المحلل الأسلوبي هذه الخواص والسمات على أنها مجرد مؤشرات لعناصر لها ميزتها البنوية، دون أن يتساءل عن مدى صدق هذه الأحكام من الوجهة الجمالية.

ومن هنا فالقارئ الجمع هو محصلة ردود أفعال، وجملة انفعالات عدد من المخبرين اللغويين تجاه نص ما، ومختلف التحاليل الأسلوبية والترجمات وقرارات الأجيال المختلفة، وكل ما لفت النظر في نص ما بأي طريقة كانت.

ويفضل المحلل الأسلوبي أن يكون المخبرون مثقفين ليعطوا النص مطية لسياق ما يعلمون.

يؤكد "ريفاتير" أهمية الزمن كعامل مغير في الدلالة الأسلوبية، فاستجابات القارئ الجمع/ النموذجي لا تصلح إلا بالنسبة لحالة اللغة التي يعرفها؛ إذ إن وعيه اللغوي الذي يتحكم في ردود فعله يتصل فحسب بفترة زمنية وجيزة في تطور اللغة. من هنا نلاحظ "ريفاتير" أن القارئ الجمعي النموذجي معرض لنوعين من الأخطاء:

1. أخطاء الإضافة: تتمثل في اعتبار العناصر اللغوية العادية في عصرها ذات ميزة أسلوبية لم تكن لها، نظراً لاختفائها من النظام اللغوي الذي يستخدمه القارئ، وإثارته لانتباهه كما لو كانت عناصر غير عادية. ومثال ذلك في أدبنا العربي أسماء الأماكن والعناصر البدوية في شعراء امرئ القيس وغيره من شعراء الجاهليين، إذ قد تستعصي على قارئ اليوم فيضفي عليها صبغة أسلوبية لم تكن لها في عصرها.

2. **أخطاء الحذف:** إذ ثمة عناصر أسلوبية ذات ميزة في النص الأصلي كتحددات مستحدثة، ذابت مع الزمن في الاستعمال العادي فأشبهت الوحدات العادية التي لا تملك ميزة أسلوبية، فلم تعد ملحوظة من طرف القراء، وتتوقف عن التأثير فيهم، فتفقد بذلك شحنتها التأثيرية.

ب- **مرحلة التأويل:** وتُبنى على جملة من المعايير الأسلوبية المفيدة في النص الأدبي لا على ما تصوغه ذاتية القارئ المنفرد. إننا بالقارئ الجمع / النموذجي نجمع الظواهر المفيدة في مرحلة أولى، ولا نبني التأويل إلا على الظواهر التي استقطبت انتباه عدد كبير من القراء والنقاد والمحللين. ومكان القارئ الجمع / النموذجي يقع بين محلل النص والنص ليمتص الأحكام المعيارية والانفعالات النفسية، ويضع المحلل في مواجهة المنبهات الأسلوبية، دون أن تصيبه عدوى الذاتية التي تصيب القارئ العادي.

4- السياق:

كان للقصور الذي لاحظته "ريفاتير" في القارئ الجمع / النموذجي دور في البحث عن معيار جديد يكمل القارئ الجمع، ورأى أنه يمكن عد "السياق" معياراً، وأن الأسلوب يتحقق بالانحراف عن هذا المعيار، وعرف السياق بأنه: "نموذج لساني مقطوع بواسطة عنصر غير متوقع"، وعن التضاد الحاصل من تداخل المتوقع وغير المتوقع ينشأ "المنبه الأسلوبي". وبالتالي فالسياق عند "ريفاتير" لا يعني الأطر التاريخية والسياسية والاجتماعية المحيطة بالنص (سياق الحال)، كما هو متداول بين المشتغلين في الحقل اللغوي والنقدي وغيرهما.

4-1- أنواع السياق:

يقسم "ريفاتير" السياق إلى نوعين:

4-1-أ- السياق الأصغر:

وهو يقوم على وحدة لغوية (نسق أصغر) يرفدها انحراف أو مخالفة، ويكونان معاً ما يسميه "ريفاتير" وجهاً أو مسلماً أسلوبياً؛ أي أن المسلك الأسلوبى عنده هو ثنائية بنىوية تعتمد على التضاد وطرفاها "السياق والمخالفة، فنقول مثلاً: "شمس سوداء"، "عطر صارخ"، "ضوء خجول" فكلمة "شمس" فى هذه العبارة هى نسق أصغر، والوصف الذى أعقبها هو تضاد أو انحراف أو العنصر غير المتوقع.

ويعلل "ريفاتير" وحدة السياق الأصغر بالمعادلة الآتية:

مسلك أسلوبى / وجه أسلوبى = نسق أصغر + مخالفة / تضاد.

4-أ-2- السياق الأكبر: وهو نوعان:

4-أ-2-1 النوع الأول: هو نوع يقع فيه قطع النموذج بعنصر غير متوقع، ثم يعود الكلام إلى مساره ونظامه. وصورته هى:

سياق ————— وجه أسلوبى / مسلك أسلوبى ————— سياق.

ويتميز هذا النموذج بالعودة إلى السياق الأول بعد الإجراء الأسلوبى أو المسلك الذى مهّد له.

مثال ذلك: "ذهبت إلى جيجل مصطحباً معى القبيلة لقضاء الإجازة السنوية".

فى هذا المثال يلاحظ أن كلمة "قبيلة" دخيلة على السياق السابق واللاحق؛ إذ إن هذه الكلمة تختلف عن بقية كلمات الجملة، ومع هذا كان لها تأثير مضاد للجزء الأول من العبارة قبل كلمة "قبيلة"، وبعد ذلك تسير الجملة بشكل عادى، وفى إطارها، مما يكون النوع الأول من السياق الأكبر:

السياق : الذهاب إلى جيجل

المسلك الأسلوبى: اصطحاب القبيلة (انزىاح / خروج عن المتوقع)

عودة إلى السياق: قضاء الإجازة السنوية.

4-أ-2-1 - النوع الثاني: مشتق من السابق بمفعول "التشبع" (Saturation)، الذي يحول الوجه الأسلوبي إلى سياق جديد لوجه أسلوبي تالٍ، فالتشبع يضعف من قدرة الأساليب على بناء التضاد، فيحولها إلى دور ثانوي، وهو أن تكون مكوناً من مكونات وحدة أسلوبية جديدة تقوم فيها مقام السياق:

سياق ——— وجه أسلوبي ——— تحول الوجه الأسلوبي إلى سياق جديد ——— وجه أسلوبي ——— سياق.

أي أن الوجه الأسلوبي هنا يولّد مجموعة من الوجوه من الجنس نفسه، فمثلاً بعد إيراد كلمة "قبيلة" في المثال السابق، تأتي مجموعة من الكلمات والعبارات الملائمة لها، مثل: الصحراء، المشية، الخيام، وهذا يؤدي إلى حالة من "إشباع" الوجه الأسلوبي السابق، فتنتهي بأن تفقد تلك الكلمات قدرتها على التضاد، ولا تبرز كنقطة محددة في النص، الأمر الذي يجعلها تصبح حينئذٍ مكوناً لسياق جديد يمهد بدوره لتضاد آخر.

5- الانصباب / التراكم / التناصر (Convergence):

وهو ظاهرة أسلوبية تتصل بما سبق؛ إذ هو نوع من تكثيف الأساليب، حتى يغدو الوجه وجوهاً لا مناص من ملاحظتها والالتفات إليها، فهو يعني تراكم عدد من المسالك الأسلوبية المستقلة عند نقطة معينة، ولو انفرد واحد من هذه المسالك لكان معبراً بمفرده، أما وهي مجتمعة فإن كلاً منها يضيف طاقته التعبيرية إلى سائرهما، وهو المظهر الأسلوبي الوحيد الذي يمكن الجزم بأن الكاتب ركبه في النص عن قصد ووعي، ويقدم "ريفاتير" مثلاً على ذلك من رواية "موبي يدك" لـ "هيرمان ميلفيل":

" البحر الأسود ينتهد ويتهد، ولا يزال ينتهد، ولا يتهدد، كأن أمواجه المتلاطمة ضمير..."،
فهنا نجد تراكم وتكثيف عدد من الوجوه الأسلوبية:

1. قلب الترتيب العادي للجملة (الفعل والفاعل).

2. تكرار الفعل (لا يزال يتهدد) الذي يولد من تكرار الثلاثي.

3. كلمة مرتجلة لتناسب السياق (يتهدد)، وهي كفيّلة لوحدها بإحداث مفاجأة.

4. الاستعارة المعتمدة على تشبيه مقلوب؛ تشبيه الحسي وهي الأمواج بالمعنوي وهو الضمير.

إن تلاقى هذه الأساليب مقياس يمكن بالإضافة إلى الدلالة على وجود الظاهرة الأسلوبية، من تدراك ما قد يصيب القارئ الجمع من سهو غطاءه بعد المسافة بين سنته وسنة كاتب في النص، فيرتكب خطأ بالنقص.

وهكذا فمقياس الانصباب أو التناصر يعوض غياب التضاد أو الخلاف، ويأتي ليدعم المقياسين السابقين وهما: القارئ الجمع والسياق.

6- الانحراف والتضاد البنيوي:

اهتم "ريفاتير" بمفهوم الانحراف/التجاوز، ورأى أن يكون البحث عنه في النص نفسه، ويحدد "ريفاتير" الظاهرة الأسلوبية بناءً على مفهوم التجاوز بكونها تجاوزاً للنمط التعبيري المتواضع عليه، وقد يكون التجاوز خرقاً للاستعمال العادي للغة أو لجوءاً إلى ما ندر من الصيغ. وقد طوّر "ريفاتير" مفهوم الانحراف ليستخلص منه في الأخير مقولة التضاد البنيوي؛ التي تسمح بإنتاج إجراءات أسلوبية تستند إلى القارئ؛ إذ تصبح عملية التلقي بمثابة معيار لتحديد الوقائع الأسلوبية التي يتوفر عليها النص.

ومن هنا يتجه التحليل الأسلوبي إلى رصد ملامح التضاد التي أدى إليها اختيار المؤلف وأبرزها القارئ في إعادة تكوينه للأسلوب.

مراجع المحاضرة:

- نور الدين السد، الأسلوبية وتحليل الخطاب.
- يوسف أبو العدوس، الأسلوبية الرؤية والتطبيق.
- حسن ناظم، البنى الأسلوبية في أنشودة المطر.
- مايكل ريفاتير، معايير تحليل الأسلوب، ترجمة حميد لحمداني.